البيان بين الحقيقة اللغوية والاصطلاح البلاغي

إعداد

الدكتور/ هلال عطا الله عثمان

أستاذ البلاغة والنقد المساعد

Scanned by TapScanner

Scanned by TapScanner

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

حمدا لله سبحانه وتعالى على عظيم آلائه، وشكرا لـــه علـى جزيل نعمه وفيض عطائه، وصلاة وسلاما على صفـــوة رسـله وخاتم أنبيائه، إمام البلغاء وسيد الفصحـــاء، الـذى أيـده ربـه بالمعجزات وأجرى على يديه خوارق العادات، وكان تاجها وذرة سنامها تلك الحجة الساطعة، والمعجزة الباهرة، القـرآن الكريـم المنزل بلغة العرب، وهم أرباب البلاغة، وصناع البيـــان، فلـم يقدروا على محاكاته، ولم يستطيعوا النيل منـــه، ووقفـوا أمـام بلاغته مبهوتين، وتحقق الإعجاز لكتاب الله الكريم، وصـــدق الله العظيم إذ يقول:

﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾.(١)

وبعد

فإن هذا البحث يتحدث عـــن البيـــان بيـــن الحقيقـــة اللغويـــة والاصطلاح البلاغى وتناولت فى هذا البحث:

١- سورة البقرة آية رقم ٢٣، ٢٤.

Scanned by TapScanner

١- القيمة لهذا المصطلح.

٢- و البيان هى مفهوم أهل اللغة.

٣- و البيان بمعناه العام.

٤- والبيان عند أهل الاصطلاح.

٥- واستقرار المصطلح البيانى.

٦- أثر القدماء فى تأصيل هذا المصطلح.

٧- وموقع البيان من علم البلاغة.

٨- والبيان فى طور التجديد البلاغى.

وكانت طبيعة مصادر هذا البحث ومراجعه، أن تهتم بالأصول عند القدامى أولاً، وترتاد المبتكر عند المحدثين ثانيا.

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب

الدكتور

هلال عطا الله عثمان

Scanned by TapScanner

١- القيمة البيانية:

العرب أمة بيان، وأئمة لسان، ولو قسم التراث الإنسانى بين الأمم، لكان الفن القولى تراثهم، والموروث البلاغى نصيبهم، لهذا كان القرآن الكريم من جنس ما يحسنون، أنزل بلسان عربى مبين، ومن ثم كان إعجازه البيانى أرقى مراتب الإعجاز، ومناخه فى تقويم اللسان من أولى دلائل التبليغ، وأعمق المعجزات أثرا ما وافق مميزات العصر، وأعلاها منزلة ما واكب متطلبات الفطرة، ولقد جبل العربى فى صحرائه على حب الكلمة وتوخى عذوبة الألفاظ، تهزه الخطبة وتطربه القصيدة، حتى عمد إلى مختارات من الشعر العربى الرائق فعلقها على ظهر الكعبة، وهى أقدس بقعة، وأول بيت وضع للناس. وكانت أسواقهم الأدبية فى عكاظ وجنة وذى المجاز مسرح خطبهم، ومنابر فخرهم، يتلى فيها ما يمثل قريحتهم ويواكب أذواقهم.

وعلى ضوء هذا المنطق الواضح يصح لنا تحديد التراث الإنسانى للعرب بالبيان، فالبيان كل شىء فى حياتهم، وكل شىء بعد مماتهم، به يتبارون وعليه يثيبون، وفيه يتمايزون، وهبط القرآن الكريم بين ظهرانيهم فكان ثروة بيانية لا تنفد، ومعينا بلاغيا لا ينضب ورسالة سماوية لا يقر بها الباطل، وكلمهم بلغتهم فنفد إلى قلوبهم محتفلا بالبيان، فهو بيان للناس، يهديهم ويرشدهم ويوجههم نحو الله.

Scanned by TapScanner

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الْإِنسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾[1]

وهو المنطق الفصيح المعرب عما في الضمير كما عرفه الزمخشري[2] فهو لغة الضمير المعبر عنها بالكلمات، وهو حديث النفس المصور بالألفاظ، لهذا فعل في العقول ما يفعل السحر فصور النبي ﷺ ذلك بقوله: "إن من البيان لسحرا"[3] فاحتفاؤنا به احتفاء بركن قويم، ينطق به الفكر وينبض به الجنان، فهو من العرب عصارتها، ومن الحضارة زبدتها، تنزل به ثمرات العقول، وتقاس عليه مدارج الرقى، وتبلغ فيه حاجات النفس، وتبلغ به الرسالات ويميز به الإنسان عن سائر المخلوقات، فبحسبه أنه مبين، تمييزا عن الأبكم والأعجم والأخرس، وتفضيلا عن الصامت والواجم والجماد، ولا تذهب كل مذهب، فللبيان إطلاق في اللغة، وإطلاق في الاصطلاح، وللتفريق بينهما لابد من مقارنة ترفع الأبهام، وتزيل الغموض، فليس كل بيان بيانا، ولا كل منطق بفصيح، فالكلام مراتب، والأفهام تتفاوت، فما كان منه بوجه من وجوه العربية الفصحى، مشتملا على المجاز في شتى ضروبه، والتشبيه بمختلف صنوفه، والاستعارة بأبهى إرادتها، فهو البيان المعنى بالحديث، بل هو علم البيان في التفريع عند التطبيق، وما كان قاصداً إلى التعبير فحسب، فهو إبانة قد تحقق مميزات هذا العلم، وقد لا تحققها،

١- سورة الرحمن آية ١-٤.
٢- الزمخشري الكشاف ٤/ ٣٥٣.
٣- ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر ١/ ١٧٤.

Scanned by TapScanner

تحقق مميزات هـذا العلم، وقد لا تحققها، من هنا لم يكن هنـاك مناص من التفريق بين الوجهين فـي ضـوء المعنـى اللغـوى والمصطلح الفنى لنلخص إلى ما نريد بالتحديد.

وهذا ما يقتضى بيان المعنى اللغوى من جهة، ومسايرة البيـان بالمعنى العام من جهة ثانية، وتحديد المصطلح البيانى ثالثة، وهو ما تبحثه الصفحات الآتية:-

٢- البيان لغة:-

وردت عند اللغويين عدة فقرات فاحصة فى تحديـد المعنـى اللغوى للبيان.

ونضع أيدينا على ما أبداه كل من الراغب الأصبهانى المتوفـى سنة ٥٠٢هـ وابن منظور المتوفى سنة ٧١١هـ تجـاه اللفـظ لتميزهما بفهم خاص يسير بمنحى البيان باتجاهين قويمين يعطـى كل منهما ذائقة لغوية متميزة تجمع إلى جنـب الدقـة التوسـع والرأى.

أ- فالبيان -عند الراغب- الكشف عن الشىء، وهو أعم مـن النطق، مختص بالإنسان ويسمى ما بُيّن به بيانا .... ويكون على ضربين.

أحدهما، بالتسخير، وهو الأشياء التى تـدل علـى حـال مـن الأحوال من آثار صنعه.

والثانى، بالاختيار، وذلك إما أن يكـون نطقـا أو كتابـة أو الإشـارة، فممـا هـو بيـان بالحـال قولـه تعـالى:

Scanned by TapScanner

﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾(١) أى كو
عدوا بين فى الحال، وما هو بيان بالاختيار كقولـه تعـ
﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾(٢) وسـ
الكلام بيانا لكشفه عن المعنى المقصود إظهاره
﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾(٣) وسمى ما يشرح به المجمل والمبهم مـ
الكلام بيانا نحو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾(٤).

وقد تبين من تعقب الراغب للبيان ما يلى:(٥)

١- إن البيان أعم من النطق والكلام، وإن كان مما يختص بـ
الإنسان، فالإشارة الموجية بيان، والنطق المفهم بيان، والكتابة الهادفة بيان، وكذلك فهو مما يختص بالإنسان.

٢- إن البيان على نوعين إلهى وبشرى، فالإلهى ما ارتبط بإنجاز الأشياء فوراً بإرادة الكينونة المطلقة﴿كُن فَيَكُونُ﴾(٦).

وذلك البيان ما يستنبط من آثار صنع البارى عز وجل، وأما البشرى فهو على ضربين أيضا: بيان بالحال تكشف عنها القرائن والأمر الواقع، وبيان بالاختبار كالمساءلة والمباحثة والمخالطة والمشافهة واضراب ذلك.

١- سورة الزخرف آية ٦٢.
٢- سورة النحل رقم ٤٤.
٣- سورة آل عمران ١٣٨.
٤- سورة القيامة ١٩.
٥- الراغب الأصفهانى المفردات فى غريب القرآن ٦٩.
٦- البقرة ١١٧ آل عمران ٤٧، ٥٩، الأنعام ٧٣.

Scanned by TapScanner

٣- إن تسمية الكلام بيانا ناجمة عن إظهاره المعنى المقصود فهو على هذا يشمل كل ما أظهر المعنى المقصود سواء أكان كلاماً أو رسماً أو رمزاً أو إشارة وكان قد أشار إلى هذا الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ من ذى قبل.(١)

٤- أن إيضاح المبهم وتفصيل المجمل من البيان بل قد سمى بياناً.

والملاحظ فيما تقدم أن الراغب أبان بعض الجزئيات الدقيقة للبيان، وإن لم يتعقب جذر الكلمة، ولا استقطب عموم إرادتها.

ب- أما ابن منظور المتوفى سنة ٧١١هـ فقد تكفل باستيعاب جذر الكلمة ومفرداتها دون اللمسات التى قد قدمها الراغب: "البيان ما بين به الشىء من الدلالة وغيرها. وبأن الشىء بيانا: اتضح. وتبين الشىء ظهر والتبين الإيضاح والوضوح. والبيان الفصاحة واللسن، وكلام بين فصيح، والبيان الإفصاح مع ذكاء، والبين من الرجال: الفصيح.

والبيان إظهار المقصود بأبلغ لفظ، وهو الفهم وذكاء القلب مع اللسن، وأصله الكشف والظهور(٢) وقد ظهر أن ابن منظور امتداداً للغويين يحمل معنى البيان ما يأتى:

١- ما يبين به الشىء ويتضح ويظهر، وهو بهذا موافق للتبيين إذ يعنى بالإيضاح والوضوح.

١- الجاحظ البيان والتبيين ١/ ٧٦.
٢- ابن منظور لسان العرب، ١٦/ ٢١٤ وما بعدها.

Scanned by TapScanner

٢- إن البيان يأتى بمعنى الفصاحة، وإذا وصف الكلام به ، فصيح، ويرد بمعنى الإفصاح مع الذكاء.

٣- إن البيان إظهار للمقصود بأبلغ لفظ وكانه يشير بايهامه إلى المعنى الاصطلاحى دون التحديد له.

٤- إن أصل البيان فى جميع ما تناوله من المعانى هو الكشف والظهور ويتجلى مما سبق أن الراغب قد تحدث عن المعنى التطبيقى للأصل اللغوى، وأن ابن منظور قد تحدث عن المعنى الدلالى للبيان مع إشارته لبلاغته فى توخى المعنى الاصطلاحى له.

ونخلص من هذا أن لفظ البيان – نطقا – هو ما يراد به الكشف والإيضاح والظهور وتلك مادة اللفظ الأولى لغة.

٣- البيان بمعناه العام:

يبدو أن البيان لم يأخذ دلالته الاصطلاحية، ولا اكتسب صيغته النهائية منذ عصر الجاحظ حتى عصر عبد القاهر الجرجانى المتوفى سنة ٤٧١ هـ وفى شذرات من بعده عند الزمخشرى المتوفى سنة ٥٣٨هـ والرازى المتوفى سنة ٦٠٦هـ.

فقد كان البيان يتقلب فى وجوه القول كافة ويواكب فنون البلاغة بعامة، يختلط بالمعانى حينا، ويستوعب جملة من علم البيان حينا آخر.

فالجاحظ وإن ذكر الألفاظ ونقد المعانى، وكان عنده أن حكم المعانى خلاف حكم الألفاظ، إلا أنه لم يحدد التقاء البيان علما

Scanned by TapScanner

ومصطلحا بواحدة منهما بل جعله مشاعا يشمل صنوف البلاغة، فعنده أن الدلالة الظاهرة على المعنى الخفى هو البيان، وكلما كانت الدلالة أوضح وافصح كان إظهار المعنى أنفع وانجع.(١)

ويخلص إلى أن البيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجب دون الضمير، حتى يفضى السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله،كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أى جنس كان ذلك الدليل.

لأن مدار الأمر والغاية التى إليها يجرى القائل والسامع إنما هو الفهم والأفهام فبأى شيء بلغت الأفهام وأوضحت عن المعنى، ذلك هو البيان فى ذلك الوضع.(٢)

وهذا الاتساع الفضفاض فى صفة البيان، لا يعطى دلالة اصطلاحية ولا يفضى إلى ضبط علمى دقيق عند الجاحظ، وإنما يعنى بأهمية البيان أكثر من تحديده وبقيمته عند القدامى والمعاصرين له بشكل يوحى بعدم إرادته للمصطلح بل البيان بمعناه العام المطلق المشتمل على معايير القول وموازين الكلام فهو يورد التعميمات الآتية "البيان بصر، والعى عمى ... البيان من نتاج العلم، والعى من نتاج الجهل ... البيان ترجمان العلم ... حياة العلم البيان ... البيان عماد العلم".(٣)

١- الجاحظ البيان والتبيين ١/ ٧٧.
٢- المصدر نفسه ١/٧٨.
٣- المصدر السابق ذكره.

Scanned by TapScanner

وفيما أورده يتضح أنه نثر بعض الحكم والأمثال في البيان وأهميته بالنسبة للعلم وموقعه منه، وهذا يدلنا بوضوح المصطلح بعد لم يتمخض عن ميلاد وينطوى أكثر من قرن هذا الفهم للبيان فيطل بلاغى عظيم القدر هو على بن الرمانى المتوفى سنة ٣٨٦هـ فلا يزيد على البيان في شيئا، بل نجده يحذو حذو الجاحظ فى عموميات وتقسيمات إليها الجاحظ من ذى قبـــل، وهـــى جميعــا لا تعنـــى بالمعنى الاصطلاحى، ولا تحدد تضاعيفه.

حقا لقد حصر الرمانى بنظرة بلاغية قويمة جزءا يعتد به من أشتات البلاغة العربية ومفرداتها، وكان هـــذا الحصـــر متمثلا بتقسيمه البلاغة إلى عشرة أقســـام هـــى: الإيجـــاز، والتشبيه، والاستعارة، والتلاؤم، والفواصـــــل، والتجـــانس، والتصريف، والتضمين، والمبالغة، وحسن البيان.(١)

أ- وحين نلحظ هـــذا التقســيم نـــرى أنـــه لا يعنـــى بالجانب الاصطلاحى الذى عليه علم البيان، فهو يعبر عن هذا القسم باسم حسن البيان لا البيان ولا علم البيان، وقد جعله قسما من البلاغة وجعل التشبيه والاستعارة اللذان هما جزءان من علم البيان قسمين معادلين له، وليس بفرعين عنه، مما يدل دلالة مؤكدة أنه لا يعنى ما تريد.

١- الرمانى النكت فى إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل ٧٦.

Scanned by TapScanner

ب- يبدو من حديث الرمانى عن البيان إرادته لمعنـــاه العـــام لا تحديده الدقيق فهو عنده "الإحضار لما يظهر به تمييز الشـــىء من غيره فى الإدراك، والبيان على أربعـــة أقســـام: كـــلام، وحال، وإشارة، وعلامة".(١)

وهذا الفهم يعنى بالبيان أصلا سواء كان كلاما، أم كان رمـــزا أو كان بقرينة حالية دون المقال، وهو شـــىء والبيـــان فـــى الاصطلاح شىء آخر، على أن ما أبداه قد سبق إليه الجـــاحظ فى تقسيمه للبيان من ذى قبل بزيادة الخط الذى لم يشر إليـــه الرمانى.(٢)

جـــ- ومما يدل على ما ذهبنا إليه أنه يعقب على ذلـــك بقولـــه: "وحسن البيان فى الكلام على مراتب: فأعلاها مرتبة ما جمع أسباب الحسن فى العبارة من تعديل النظم حتى يحســـن فـــى السمع، ويسهل على اللسان، وتتقبله النفس تقبل البرد، وحتـــى يأتى على مقدار الحاجة فيما هو حقه من المرتبة(٣) وهذا كلـــه باعتبار البيان بمفهومه العام بالاعتبار البلاغى المحدد.

د- ومما تقدم يبدو أن البيان عند الرمانى يتخذ طابعين:

الأول: أنه فن من فنون البلاغة لأنه جـــزء مـــن أجزائـــها العشرة لديه.

١- المصدر نفسه ١٠٦.
٢- الجاحظ البيان والتبيين ١/٧٦.
٣- النكت فى إعجاز القرآن للرمانى ١٠٧.

Scanned by TapScanner

الثانى: أنه يتكئ على الجاحظ فـــى تقســـيم البيـــان بمعنى الأفهام، وعموم ما يوصل المعنى إلى الذهن.

والطريف فى الأمر أن يستند ابن رشيق القـــيروانى المتوفى سنة ٤٥٦هـــ على الرمانى فى التعريف الـــذى اختـــره ونسبه للرمانى وهو به عيال على الجاحظ فقال: "البيان الكشـــف عن المعنى حتى تدركه النفس من غير عقلة، وإنما قيل ذلك: لأنه قد يأتى التعقيد فى الكلام الذى يدل ولا يستحق اسم البيان".(١)

فهذا التعريف الذى يسنده إلى الرمانى وهو بـــه عيـــال على الجاحظ كما أسلفنا، لا يعطى رأيا فى الموضوع إطلاقا، نعم نجده يجعله فنا من فنون البلاغة كما جعله الرمانى، من ذى قبل فهو عند الرمانى القسم العاشر من البلاغة وهو عند ابن رشيق البلاب الثالث والثلاثون من العمدة، ولم يعطنا أى جديد فى الأمر، بـــل يصح لنا أن نقول أنه مر به مترددا لم يتكلف فيه إلا عناء النقـــل وإيراد بعض الأمثلة التطبيقية.

ويبدو مما سبق أن البيان لم ينتقل عن معناه العام الواسع منـــذ عهد الجاحظ حتى عصر ابن رشيق، بل كلن دائما فى فلك الأدلة العامة التى تعنى بجمال القول، وبلاغة الكلام، وانسجام العبـــارة، وحسن الأداء، وأشتات البيان.

٤- البيان عند أهل الاصطلاح:

ليس هناك أدنى ريب فى أن عبد القاهر الجرجانى يعد مطـور

١- ابن رشيق، العمدة ١/ ٢٥٤.

Scanned by TapScanner

البحث البلاغى وواضع أصوله فـــى كتابيـــه الجليليـــن: دلائـــل الإعجاز وأسرار البلاغة، فقد سبر أغوار الفن البلاغـــى شـــرحا وإيضاحاً وتطبيقا، اعتنى باللباب من هذا العلم، وأكـــد الجـــانب الحى النابض، وابتعد عن الفهم العشوائى، والخط الغوغائى بيـــن النظرية البلاغية وتطبيقاتها، لم يعتن بالحدود المقيـــدة منطقيـــا، فماذا يعنى العلم من الجفاف فى الحد، أو الغلظة فى الرســـم، أو الصرامة فى القاعدة، لهذا وأمثاله لم نجد عبـــد القـــاهر مـــهتما بإعطائنا أية حدود بلاغية تخص التعريف فى أى مجال، بل كـــان يؤثر الحديث عن قيمة أى أصل بلاغى، وفنية دلالته، بدلا مـــن الدخول فى تحديدات مربكة، أو تعريفات فارغة، لهذا نجـــده إزاء علم البيان متحدثا ببيانه الساحر ومنطقه الجزل، ومصرحا باسـمه دون من سبقه تسمية اصطلاحية، ولكنه لم يعطنا بـــذات الوقـــت تعريفا اصطلاحيا، فيقول: "ثم إنك لا ترى علما هو أرسخ أصلا، وأبسق فرعا، وأحلى جنى، وأعذب وردا، واكرم نتاجاً، وأنـــور سراجاً، من "علم البيان" الذى لولاه لم تر لسانا يحـــوك الوشـــى، ويصوغ الحلى، ويلفظ الدر، وينفث الســـحر، ويقـــرى الشـــهد، ويريك بدائع من الزهر، ويجنيك الحلو اليانع من الثمر، والـــذى لا تحفيه بالعلوم وعنايته بها، وتصويره إياهـــا لبقيـــت كامنـــة مستورة، ولما استبنت لها يد الدهر صورة، ولا ستمر الأســـرار جملتها، واستولى الخفاء على جملتها، إلـــى فوائـــد لا يدركـــها إحصاء، ومحاسن لا يحصرها الاستقصاء".(١)

---

(١) عبد القاهر الجرجانى دلائل الإعجاز ٤.

Scanned by TapScanner

فأنت تلاحظ من هذا النص وصفا تقويميا لعلم البيان، وكلاما حثيثا على أهميته وقيمته، ولقد ورد فيه اسم علم البيان، وورود التسمية عند عبد القاهر لم يكن عبثا دون مسمى، ولم يكن فارغا دون تطبيق، لأن مما لا شك فيه أن عبد القاهر تعقب التسمية بمسمياتها، وهذا العلم بتفريعاته، فقد تحدث بإسهاب عن الحقيقة والمجاز، ثم عن الاستعارة وأصنافها، ثم نجده قد فصل القول في التشبيه والتمثيل، ثم يعرض إلى الكنايـــة والتعريض، فهل ترى عبد القاهر في وضع هـــذه الأبـــواب، وبحث هذه الفصول، كان يقوم بعمل اعتباطي غير منظم دون لمح إلى هذا الترتيب القويم لمفردات "علم البيان".

أما أنا فلا أعتقد ذلك، بل أراه أنه عمد إلى مفردات علم البيان فبحثها ونظر لها وتعقبها، ليضع بذلك مقاييس علم البيان، كما أن جهوده في فكرة النظم، وارتباطها بمعاني النحـــو، مـــا كـــان إلا تمهيداً طبيعيا لما تعارفوا عليه فيما بعد باسم "علم المعاني" فهو حينما يتحدث عن الفصل والوصل، والتقديم والتـــأخير، والذكر والحذف، والمسند والمسند إليه، والتعريف والتنكير، فإنما يتحدث عن علم المعاني، وإن لم يقل أن هذه هي مـــادة علـــم المعـــاني، ومفرداته فهو أمر مفروغ منه عنده في تأكيد المعاني، وارتبـــاط فكرة النظم بمعاني النحو، مشفقا على ذلك ومفرعا عنه "ولا ريب في أن الفضل في ابتكار هذا العلم يعود إلى عبد القاهر وحـــده، فإن مسائل هذا العلم لم تدرس قبله، ولم تعالج على هذا النحـــو، ولعل تمعن عبد القاهر في الحديث عن معاني النحو، وأن النظـــم

Scanned by TapScanner

ليس شيئا إلا توخى هذه المعانى، وهو الذى لوحى بتسمية هـــذا العلم "بعلم المعانى".(١)

وما يقال عن علم المعانى فى ترتيب عبـــد القـــاهر لمباحثـــه البلاغية يقال عن "علم البيان" نصا، مما يجعلنا نؤيد بقوة ما ذهب إليه الدكتور أحمد أحمد بدوى فى حديثه عن الـــترتيب الطبيعـــى لمفردات علم البيان وأبوابه عند عبد القاهر "هـــذه الأبـــواب ذات الصلة المتشابكة، جمعها عبد القاهر فى كتاب، واعترف باهميتـــها فى البلاغة العربية، وقرر أن البلغاء ينظرون إليها نظرة تقديـــر وإعجاب هى التى جمع شملها من جاء بعد عبد القاهر فى مسائل علم البيان فى محاولته تحديد مسائله، وذكر أقسامها، ومعرفة سر بلاغتها، والوقوف عند أمثلتها، يستوحى ســـر جمالـــها، وذلـــك مجتمعاً لم يقم به بلاغى قبل عبد القاهر".(٢)

وبعد عبد القاهر نجد الزمخشرى يذكر مصطلحى علم المعانى وعلم البيان نصا فى حديثه عن آداب التفسير "ولا يغوص علـــى شىء من تلك الحقائق إلا رجل قد برع فـــى علميـــن مختصيـــن بالقرآن وهما علم المعانى وعلـــم البيـــان(٣) وجـــاء مـــن بعـــد الزمخشرى فخر الدين الرازى المتوفى سنة ٦٠٦هـ فذكر هذيـن المصطلحين فى حديثه عن الخبر فقال: "ولكن الخبر هـــو الـــذى يتصور بالصور الكثيرة، وتظهر فيه الدقائق العجيبة والأســـرار

١- د/ أحمد أحمد بدوى عبد القاهر الجرجانى وجهوده فى البلاغة العربية ٣٦٩.
٢- د/ أحمد أحمد بدوى عبد القاهر الجرجانى وجهوده فى البلاغة العربية ٣٧١.
٣- شوقى ضيف، البلاغة تطور وتاريخ ٢٢١ وما بعدها.

Scanned by TapScanner

الغربية من علم المعانى و البيان".(١)

ومع هذا التأكيد من الزمخشرى والـــرازى لعلمى المعانى والبيان إلا أن الدكتور أحمد مطلوب يشكك فى وضوح المصطلحين عندهما، ولا يستطيع أن يتبين مفهوم البيان بالدقة الاصطلاحية قبل السكاكى المتوفى سنة ٦٢٦هـ الذى أول من قسم البلاغة إلـــى معـــان وبيـــان ومحســـنات، موضوعاتها، وأرسى قواعدها.

وظل هذا المفهوم الواسع لكلمة "بيان" حتى ظهر فى خوارزم السكاكى المتوفى سنة ٦٢٦هـ فحجر ما كان واســـعا ووضع للبلاغة قواعدها المنطقية، وقسمها إلى "المعانى والبيان" والحق بهما المحسنات وجعل لكل قسم تعريفا واحداً.

وقد عرف البيان، فقال:

"هو إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة، بالزيادة فى وضوح الدلالة عليه والنقصان، ليحترز بالوقوف على ذلك من الخطأ فى مطابقة الكلام لتمام المراد منه(٢) فالســـكاكى خصـــص "البيـــان" وجعله قسما مستقلا من علوم البلاغة.

وقد جعل السكاكى "علم البيان" شعبة من "علـــم المعـــانى" لا تنفصل عنه إلا بزيادة اعتبار، لذلك جرى منه مجرى المركـــب

١- الرازى نهاية الإيجاز ٣٦.
٢- مفتاح العلوم ٧٧.

Scanned by TapScanner

من المفرد، ولهذا أخره فى الحديث عن علم المعانى[1] وهذا تعليل منطقى لجأ إليه السكاكى فى التقسيم وجعل ذلك علة لتأخير "علم البيان" عن "علم المعانى" فى الحديث عنه. وقد ألحق بهما قسما أخر – المحسنات – وهو ما عرف بعد بـ "علم البديع".

وبذلك أصبحت كلمة "البيان" عنوان علم له أصول وقواعد يمكن بواسطتها إبراز المعنى فى صورة مختلفة بعضها أوضح من بعض، مع مطابقة كل منها لمقتضى الحال.

سبب إقحام الدلالات فى علم البيان عند السكاكى:

عندما جاء السكاكى وقسم البلاغة إلى المعانى، والبيان، والمحسنات، أدخل الدلالات فى موضوعات "علم البيان" ورأى أن صاحب "علم البيان" يحتاج إلى التعرض لأنواع دلالات الكلم، ولهذا جعل له مبحثا فقال: "ولا شبهة فى أن اللفظة متى كانت موضوعة لمفهوم أمكن أن تدل عليه من غير زيادة ولا نقصان بحكم الوضع وتسمى هذه دلالة المطابقة ودلالة وضعية، ومتى كان لمفهومها ذلك – ولنسمه أصليا – تعلق بمفهوم آخر داخلا فى مفهومها الأصلى كالسقف – مثلا – فى مفهوم البيت، ويسمى هذا دلالة التضمين، ودلالة عقلية أيضا أو خارجا عنه كالحائط عن مفهوم السقف، وتسمى هذه دلالة الالتزام ودلالة عقلية أيضا.[2]

١- البيان العربى ٢٥٠.
٢- المفتاح ١٥٦.

Scanned by TapScanner

والدلالات التى تحدث عنها السكاكى فى بحث البيان هى:

١- **دلالة المطابقة**: وهى دلالة اللفظ على تمام ما وضع له، كدلالة البيت على مجموع الجدار والسقف.

٢- **دلالة التضمن**: وهى دلالة اللفظ على جزء ما وضع له، جزء مسماه مع دخوله فيه، كدلالة البيت على الجدار أو السقف.

٣- **دلالة الالتزام**: وهى دلالة اللفظ على معنى خارج عن مسماه لازم له كدلالة السقف على الجدار لأنه لازم له جزء منه.

وتسمى دلالة المطابقة عند البيانيين وضعية، ودلالة التضمن والالتزام عقليتين.

وقد عبر الإمام عبد القاهر الجرجانى عن الدلالة الوضعية والعقلية بعبارة مختصرة، وهى أن تقول: المعنى ومعنى المعنى، ونعنى بالمعنى: المفهوم من ظاهر اللفظ، والذى نصل إليه بغير واسطة، وبمعنى المعنى: أن تعقل من اللفظ معنى، ثم يفضى بك ذلك المعنى إلى معنى آخر[1] والمقصود بالدلالة فى تعريف علم البيان هى الدلالة العقلية.

وقد بنى السكاكى تقسيم علم البيان على هذه الدلالات فأخرج التشبيه منه، لأن دلالته وضعية.

١- الدلائل ١٩٠.

Scanned by TapScanner

ولا يمكن بها إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة، وايـــد ذلـــك بقوله: "وإذا أردت تشبيه الخد بالورد فى الحمرة – مثلا – وقلت: خد يشبه الورد امتنع أن يكون كلام مود لهذا المعنى بـــالدلالات الوضعية أكمل منه فى الوضوح أو أنقص، فإنك إذا أقمت مقـــام كل كلمة منها ما يرادفها، فالسامع إن كان عالما بكونها موضوعه لتلك المفهومات، كان فهمه منها، كفهمه من تلك من غير تفـــاوت فى الوضوح، وإلا لم يفهم شيئا أصلا، وإنما يمكـــن ذلـــك فـــى الدلالات العقلية.(١)

وعلى هذا فلا يمكن وجود الوضـــوح والخفـــاء فـــى الدلالـــة الوضعية.

وأما الدلالة العقلية فهى التى يمكن بها إيراد المعنـــى الواحـــد بطرق مختلفة فى وضوح الدلالة عليه، وباتخاذهم الدلالة العقليـــة وحدها أساساً للوضوح والخفاء انحصر علم البيـــان فـــى بـــابين أصليين وهما المجاز والكناية، وخرج التشبيه لأن دلالته وضعية.

ومع ما قدمناه من استقطاب عبد القاهر لمفردات علم البيـــان وتأكيده لها، وصحة تقسيم الزمخشرى لقسمى البلاغة فى استكناه بلاغة القرآن الكريم، وورود هذا المصطلح عند كل من الـــرازى وابن الأثير نجد الدكتور أحمد مطلوب – مرة ثانية – يذهب إلـــى أن للبيان عند هؤلاء معنى واسعا يدل على البلاغة كلها، ويكـــاد كلهم يجمعون على أن البيان هو الإفصاح عما فى النفـــس مـــن المعانى والأحاسيس، وهذا معنى أدبى جميل أعطى البلاغة حيـــاة

١- المفتاح ١٥٦.

Scanned by TapScanner

وأكسبها رونقا، وفتح أمامها السبيل لتخوض موضوعات لم تكن بديعة، وتكون للمؤلفين آراء نقدية طريفة.(١)

إلا أننى أرى الحال مختلفة دون ريب عند عبد القاهر الجرجانى وضع الأسس والمشخصات وجاء بالتسمية والمفردات، وعدد وفرع وقسم واستنبط وعلق ونظر وطبق فى أصول علم البيان اصطلاحا، نعم لم يلجأ إلى التقسيمات الفلسفية، كما صنع من استفاده بعده مما أوجده هو من ركائز لم يصنف إليها السكاكى شيئا، ولم يزد عليها القزوينى بابا، فالطريق – كما يبدو لى ممهدة من ذى قبل، إلا أن السكاكى ومن ورائه القزوينى، قد تجاوز المعقول فى التفريعات، وجداً فى الاستقصاء، وإطلاق المسميات بشائبة من الفكر المنطقى والحس الفلسفى الذى يبتعد فى كثير من الأحيان عن البعد البلاغى، مما يدخل البلاغة العربية الأصول فى استنباطات أعجمية وثقافات أجنبية.

وهذا لا يعنى أننا نغض من قيمة ما قدمه كل من السكاكى والخطيب القزوينى المتوفى سنة ٧٣٩هـ ولكن السبق البيانى لعبد القاهر وله الأصل وهم المفرعون، فهم وإن أوجدوا التقسيمات المطولة، والحدود المفرقة والمميزة إلا أن طريقة عبد القاهر فيما يبدو لى أجدى نفعا، وأعم فائدة، وأكثر واقعية، وهو يريد أن ينحدر تبعا لباحثيه – إلى مفاهيم مختلطة فى المنطق والأصول وعلم الكلام والفلسفة، ووجد طلاب هذا العلم على وشك الوقوع فى دوامة من الجدل والرد والنقض والحد

١- أحمد مطلوب فنون بلاغية/ ٢٠.

Scanned by TapScanner

والتعريف والإدخال والإخراج بحيث تضيق الدائرة لتصبح لغزا رياضيا لا فنا جماليا، وبالتالى تكون العناية بالنظرية لا بالتطبيق النظرية المشوبة بكثير من الأوشاب الضارة لتنتج هروبا عن هذا العلم، ونزوعا إلى التقسيمات العقيمة الدائرة فى فلكه، فعمد عن قصد وإصرار إلى مزج الفكر بالواقع، واللغة بالعاطفة، والعلم بالفن، فى إعطاء نماذج وأمثلة وتطبيقات نابعة من القرآن الكريم والشعر العربى، يجملها حينا ويفصلها حينا آخر، بحسب مقتضيات التلاؤم والتناسب فى البيان، شبيها بما أسداه من ذى قبل السيد الشريف الرضى المتوفى سنة ٤٠٦هـ فى تلخيص البيان عن الاستعارة والتشبيه دون الخوض فى التفصيلات التقسيمية المملة، وهذا يدعونا إلى اعتبار عبد القاهر الجرجانى مكتشف الاصطلاح البيانى لا فى حدوده التطبيقية فحسب بل فى جزئياته واعتباراته البيانية بعامة.

٥- استقرار المصطلح البياني:

يبدو لنا أن الحد الاصطلاحى لعلم البيان لم يعجز عبد القاهر الجرجانى بعد أن أبان متعلقات علم البيان ومفرداته، ولكنه كان غير معنى بهذا الحد لحاجة فى نفسه نميل إليها ونؤيده بها كثيراً، إذ لم يكن هدفه إضفاء صيغة الجزم على علم يتسع لمعالم عديدة اتساع اللغة والفن اللذين لصقا به وهما العربية والبلاغة، لذا كان اهتمامه – كما أسلفنا – منصبا حول ثمرات هذا العلم وجودة عطائه، وإلا فلتحديد الضيق لم يكن يغرب على باله، ولا يغرب عن تطلعاته.

Scanned by TapScanner

وأخيرا استقر البلاغيون على تعريف السكاكى لعلم البيـ
معرفة إيراد المعنى الواحد فى طـــرق مختلفـــة بالزيادة
وضوح الدلالة عليه، وبالنقصان ليحترز على ذلك عن الخطأ
مطابقة الكلام لتمام المراد"[١] ولا مانع من قبول هذا التعريف
جامع مانع كما يقول المناطقة باعتباره اتبع طريقتهم فـــى
والتخريج، إلا أنه أدخل الدلالات اللفظية فى مباحثه فعد كلا
الدلالة المطابقية، والدلالة الإلتزامية، والدلالـــة التضمنيـــة،
استيعاب علم البيان، وهى مباحث منطقية انتقل بها مـــن
البيان وبهائه إلى عقم الكلام وتخريجاته.[٢]

وبعد بحث عقيم لا يسمن ولا يغنى من جوع نجده يقول:

"وإذا عرفت إن إيراد المعنى الواحد على صـــور مختلفة
يأتى إلا فى الدلالات العقلية، وهى الانتقال من معنى إلى معنى
بسبب علاقة بينهما .. ظهر لك أن مرجع علم البيان عند هاتين
الجهتين: جهة الانتقال من ملزوم إلى لازم، وجهة الانتقال من
لازم إلى ملزوم .. وإذا ظهر أن مرجـــع علـــم البيـــان هاتان
الجهتان، علمت انصباب علم البيـــان إلـــى التعـــرض للمجاز
والكناية، فإن المجاز فيه من الملزوم إلى الـــــلازم، وإن الكناية
ينتقل فيها من اللازم إلى الملزوم".[٣]

١- السكاكى مفتاح العلوم/ ٧٧.
٢- المصدر نفسه /١٥٦.
٣- السكاكى مفتاح العلوم ١٥٧.

Scanned by TapScanner

ولما كانت الدلالات بحسب نظره، إما عقلية، وهى ما تشمل المجاز والكناية، وإما وضعية وهى التى أخرج بها التشبيه من دائرة علم البيان، لأن الوضعية لا يمكن بها إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة، بخلاف العقلية التى تتضح بها الدلالة، وبهذا الطرق الملتوية تم له إخراج التشبيه من علم البيان، ثم كر على الموضوع فأدخل التشبيه فيه بطريقة ملتوية أخرى فقال:

"ثم إن المجاز – أعنى الاستعارة – من حيث أنها من فروع التشبيه لا تتحقق بمجرد حصول الانتقال من الملزوم إلى اللزوم، بل لابد فيها من تقديم تشبيه شيء بذلك الملزوم فى لازم له تستدعى تقديم التعرض للتشبيه فلابد من أن نأخذه أصلا ثالثا ونقدمه، فهو الذى إذا مهرت فيه ملكت زمام التدرب فى فنون السحر البيانى".(١)

وقد خلص من هذا التعقيد فى العبارة والثرثرة فى الاستدلال إلى استقرار علم البيان عنده فى أصلين وأصل ثالث، فكان البيان يشمل المجاز والكناية والتشبيه، وليت شعرى لم التجأ السكاكى إلى هذه الطريقة من الالتواء فى إخراج التشبيه من علم البيان، وإدخاله فيه حتى استراح إلى هذه النتيجة وهذا التقرير، فلدى التطبيق نجده قد قدم حديثه على التشبيه ثم المجاز ثم الكناية، فكان ينقضى ما أبرم، ويبرم ما انقض.

١- السكاكى مفتاح علوم البلاغة ١٥٧.

Scanned by TapScanner

وما أن جاء الخطيب القزوينى المتوفى سنة ٧٣٦هـ أعاد لنا تعريف السكاكى لعلم البيان، وسلك نهجه فى الـ وتقسيماتها المنطقية، وما كان إلا ناقلا، بأدب وناسخا بتصـ فعـرف علم البيان بقوله: "وهو علم يعرف به إيراد المعنى الـ بطرق مختلفة فى وضوح الدلالة عليه"(١) ثم دخـل فـ اللفظ، وعلى غير ما وضع له، ثم سار بالاتجاه الـذى خطط السكاكى، وتوصل إلى الاستنتاج الذى توصل إليه، وقسم البيـ كما قسمه فقال: "ثم الفظ المراد به لازم ما وضع له، اللفـظ قامت قرينة على عدم إرادة ما وضع له فهو مجـاز، وإلا فـ كناية. ثم المجاز منه الاستعارة، وهى ما تبتنى علـى التشـ فيتعين التعرض له، فانحصر المقصود فـى التشـبيه والمجـ والكناية، وقدم التشبيه على المجاز لما ذكرنا من ابتناء الاستـ التى هى مجاز على التشبيه، وقدم المجاز على الكنايـة لـ معناه من معناها منزلة الجزء من الكل".(٢)

واستقر علم البيان فيما بعد بتقسيمه، ليدل على التشبيه والمجاز والكناية، فهى مفردات هذا العلم.

وتظل تقسيمات السكاكى، والقزوينى، وسعد الدين التفتـازانى المتوفى سنة ٧٩٢هـ فيما بعد، مدار الدرس البيـانى، ومحـور النظام البلاغى الرتيب الذى لا يطاوله أحد، وقد كان ذلك معلمـا من سيماء عصر هؤلاء ومن اتبعهم من الشارحين والمختصرين

١- القزوينى الإيضاح ٢١٢.
٢- المصدر نفسه ٢١٣.

Scanned by TapScanner

لمفتاح العلوم، وكان لتأثير الناس بالفلسفة، وتقبلهم فى متاهات علم الكلام، وحب التقسيمات وتشعباتها الأثر فى إيجاد هذه السمات والمؤشرات.

والحق أن علم البيان بل البلاغة بعامة قد أوقع بهما من قبل السكاكى والقزوينى والتفتازانى ومن تابعهم من البلاغيين التقليديين فى المختصرات والشروح والمطولات والتلخيصات بمعالم جافة لا تمت إلى الذوق الفنى بصلة، بل اعتمدت الشكليات والتقسيمات المملة، فأخضعت لأقسية أصولية ومتاهات منطقية، حتى عادت شبيهة بالألغاز المعماة، لا مسحة لجمال بها، ولا أصالة لفن معها، مما دعا بعض العابثين أن يسم هذا التراث العربى الإسلامى المحض بالأثر اليونانى تارة، والأعجمى تارة أخرى، نظراً لعقم الجدال المثار فى تصانيف هؤلاء القوم.

٦- السابقون وتأصيل البيان:

والذى نحرص عليه أن السكاكى والقزوينى والتفتازانى مع اعتدادنا بجهودهم البلاغية لم يكونوا مبتكرين لحصر فن البيان وتقسيماته، فلقد سبقهم الأوائل بذائقتهم الفطرية، وباستعراض تاريخى لجهود أولئك يتجلى عظم ما قدموه للتراث فى مجال تخصصاتهم، ونشير هنا إلى أبرز المؤشرات التى وفقنا على نماذج منها فى الموضوع.

١- تحدث الخليل بن أحمد الفراهيدى المتوفى سنة ١٧٥هـ فى عدة مباحث من تصانيفه عن التشبيه وآداته.[١] وكان سيبويه

١- عبد القادر حسين أثر النحاة فى البحث البلاغى/ ٦٣.

Scanned by TapScanner

المتوفى سنة ١٨٠هـ أول من ذكر التشبيه(١) وتناول ... ذلك النوع من المجاز الذى أطلق عليه المتأخرون ... العقلى، أو المجاز الحكمى، ورأى أنه توسع واختصار ... الكلام(٢) وشواهد ذلك متناثرة فى كتاب سيبويه(٣) ... كذلك مباحث علم البيان كالتشبيه والاستعارة والمجاز والكناية بما عبر عنه باتساع فى الكلام، ولا ... والاختصار لعلم المخاطب بالمعنى.(٤)

٢- وأبو زكريا الفراء، يحيى بن زياد المتوفى سنة ٢٠٧هـ ... معانى القرآن، ومعاصره أبو عبيدة معمر بن المثنى المتوفى سنة ٢٠٩ - ٢١٠هـ فى مجاز القرآن. قد تناولا التشبيه ... وذكر طرفى التشبيه ووجه الشبه فى جملة من المباحث ... وأما المجاز فاستعماله عندهما لا يعد ولا يحصر، وإن أريد ... به طريقة العرب فى التعبير عن المعنى.(٥)

ويقول بعض الدارسين "إن حديث الفراء عن الاستعارة يعد طفرة كبيرة، وقفزة رائعة للوصول بها إلى غايتها التى نعرفها اليوم.(٦)

٣- وقد ذهب عميد الأدب العربى المرحوم الدكتور طه حسين المتوفى سنة ١٩٧٣م أن الجاحظ يعد مؤسس علم البيان

١- د/ حفنى محمد شرف الصور البيانية/ ٥٩.

٢- د/ عبد القادر حسين أثر النجاة فى البحث البلاغى/ ١٠٠.

٣- سيبويه الكتاب ١/ ٨٠ وما بعدها.

٤- المصدر نفسه ١/ ١٠٨.

٥- الفراء معانى القرآن ١/ ٧ وما بعدها.

٦- د/ عبد القادر حسين اثر النجاة فى البحث البلاغى/ ١٠٠

Scanned by TapScanner

العربى[1] وتابعه على ذلك الدكتور شوقى ضيف وتوسع فى الاعتبار فعد الجاحظ مؤسس البلاغة العربية دون منازع[2] وربما كان كتابه البيان والتبيين، مضافا إلى كتاب الحيوان، دليلاً ينهض على صحة هذا القول إذ بحث فيهما جملة مهمة من مباحث المعانى والبيان.

٢- وابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينورى المتوفى سنة ٢٧٦هـ فى كتابيه: تأويل مشكل القرآن، وتفسير غريب القرآن، بحث جملة علم البيان تشبيها وكناية ومجازا وقد توسع فى ذلك.

لقد قسم ابن قتيبة الكلام إلى حقيقة ومجاز[3] وهو يأخذ المجاز مفهومه العام ومعناه الواسع[4] إلا أنه وضع لبنة فى صرح علم لبيان، لا سيما إذا رأينا اهتمامه بالاستعارة التى عبر عنها: بأن كثر المجاز يقع فى باب الاستعارة.[5]

ومن أطرف ما أورده ابن قتيبة جمعه لمادة علمى المعانى والبيان فى صدر كتابه بأسمائها الاصطلاحية الدقيقة التى تعارف عليها المتأخرون عن عصره، وإن استخدم كلمة المجاز أحيانا بمفهومها العام، فهو يقول:-

---

١- د/ طه حسين مقدمة نقد النثر/ ٣.
٢- د/ شوقى ضيف البلاغة تطور وتاريخ/ ٥٨.
٣- ابن قتيبة تأويل مشكل القرآن ٧٨.
٤- المصدر نفسه/ ٩٩ وما بعدها.
٥- المصدر نفسه/ ١٠١.

Scanned by TapScanner

"وللعرب المجازات فى الكلام ومعناها طرق القول ومآخذه، ففيها الاستعارة والتمثيل والقلب والتقديم والتأخير والحذف والتكرار والإخفاء والإظهار والتعريض والإفصاح والكناية والإيضاح، ومخاطبة الواحد مخاطبته الجميع، والجميع خطاب الواحد، والواحد والجميع خطاب الاثنين، والقصد بلفظ الخصوص لمعنى العموم، وبلفظ العموم لمعنى الخصوص، مع أشياء كثيرة فى باب المجاز[1] وهكذا شأن كل ما هو مبتكر، وأسلوب كل ما هو قيم وأصيل، أن يعطيك الدقة والشمولية والاستقصاء، فيما يتصل بطريقة التعبير البلاغى.

٥- وأما الحديث عن المبرد المتوفى سنة ٣٨٥هـ وثعلب المتوفى سنة ٢٩١هـ، وابن المعتز المتوفى سنة ٢٨٦، وقدامة بن جعفر المتوفى سنة ٣٣٧هـ والقاضى الجرجانى المتوفى سنة ٣٦٦هـ والرمانى المتوفى سنة ٣٨٦هـ والخطابى المتوفى سنة ٣٨٨هـ والحاتمى المتوفى سنة ٣٨٨هـ وأبى هلال العسكرى المتوفى سنة ٣٩٥هـ والباقلانى المتوفى سنة ٤٠٣هـ والشريف الرضى المتوفى سنة ٤٠٦هـ وابن رشيق المتوفى سنة ٤٥٦هـ وابن سنان الخفاجى المتوفى سنة ٤٦٦هـ وإضرابهم من الأعلام، فيطول بنا، ولا يتسنى بسطه بمثل هذه الإلمامة، فكل فرد من هؤلاء يد على البلاغة، وإن لم يكن بلاغيا، فقد يلتقى علم البيان بالنقد وقد يلتقى النقد بالأدب، وهؤلاء قد أرسوا

١- ابن قتيبة تأويل مشكل القرآن/ ١٥.

Scanned by TapScanner

دعائم هذا العلم نظريا وتطبيقيا وإن لم يذهبوا إلى التقسيمات الجافة.

ونتوقف عند عبد القاهر الجرجانى المتوفى سنة ٤٧١هـ نجده بحق مؤسس هذا العلم ومشيد أركانه، فالقارئ لكتاب: دلائل الإعجاز، يلحظ مباحثه منصبة حول علم المعانى بكل تفريعاته الجمالية والأسلوبية، والمتصفح لكتاب: أسرار البلاغة، يجده مخصصا لعلم البيان وصوره كافة باستثناء الكناية التى قدم عنها بحثا مفصلا فى الدلائل.

إن الجزئيات التى أثارها عبد القاهر، والأبواب التى خاض غمارها، تعد بحق الحجر التأسيسى لمفاهيم البلاغة، ومعاييرها لذلك نعده فى المستوى التطبيقى والنظرى، الفكر المخطط، لهذا الفن.

وليس جديداً أن يقال إن عبد القاهر واضع أصول علم البيان فى كتابه "أسرار البلاغة" وواضع علم المعانى فى كتابه "دلائل الإعجاز".

٧- موقع البيان من البلاغة:

لا ريب أن مباحث المسند والمسند إليه، والفصل والوصل، والتقديم والتأخير والإضمار والإظهار، والحذف والتقدير، وأمثالها. وإن كانت لا تخلو من لمحات بلاغية، وسمات بيانية بالمعنى العام، إلا أنها مباحث نحوية، وإن المجاز والتشبيه والتمثيل والاستعارة والكناية والتعريض والرمز، وإن كانت لا تخلو دقائق نحوية، إلا أنها مباحث بلاغية.

Scanned by TapScanner

فمن الخير للعربية، ومن الصيانة للتراث، أن نرجع ...

إلى أصولها، وإلا فالفنون العربية متداخلة الأبعاد في أعراض ...

مباحثها فالنقد الأدبي ذو لمحة بلاغية.

البلاغة ذات سمة نحوية والنحو ذو صلة لغوية، والـ...

أقيسة منطقية، والمنطق ذو مسحة فلسفية، والأصول ذو ...

كلامية، وهكذا دواليك بالنسبة لفنون العربية الأخرى.

مباحث "علم المعاني" لا تخلو مـــن جفـــاف يعتمـــد ...

والرسوم والتعريفات، وكأنها قطعة من النحو تمت إليه ...

التقسيم وأواصر التعقيد، ومباحث علم البيان، لا تخلـــو ...

وبهاء يهدفان إلى إيضاح المعنـــى، وإضـــاءة اللفـــظ، و...

الصورة، فهي وثيقة الصلة بالبلاغة القائمة على أساس الكشـ...

والإيضاح، وإيراد المعنى بالصور المختلفة، فكل منهما ...

المعاني والبيان، جزء من ذلك الفن فلـــم لا يلتحـــق كـــل ...

بكلياته، وكل فرع بأصوله؟ هذا هو ما يقتضيه الـــذوق السـ...

والطبع الفطرى.

والعرب بهروا بجمال القرآن وروعته، ونظروا إلـــى التغيير

الجذرى الذى أضافه ليس فى العادات والمفاهيم والتقاليد فحسب

بل فى القول والكلام والنظم البيانى، لقد نظروا إلى لغتهم وهي

تتجه – فجأة – نحو الاستقامة والاستقرار والصعود فحدبوا على

عطاء هذه اللغة يختزنونه، وعمدوا إلى مرونتـــها يستغلونـــها

فكان هذا المخزون جمالاً بلاغيا لا يبلى، وكان ذلك الاســـتغلال

موروثا بيانيا لا يفنى، وما ذاك إلا اسجلاؤهم لـــدلالات القرآن

Scanned by TapScanner

الأدبية وفنونه القولية، فقد خلص اللغة من الوحشي والغريب، وهذب طبع ألفاظها من التنافر والتعقيد، فلم يعد العرب بحاجة إلى إقصاء ذلك واستبعاده هم الآن – أعنى العرب – بحاجة إلى الكشف عن خبايا هذا الكتاب وكنوزه، وقد كان الكشف منصبا حول مجازات القرآن واستعارته وتشبيهاته وكناياته، وهذا هو الملحظ البلاغى الخالص فى استكناه وجوه الإعجاز البيانية فى القرآن الكريم ولم يكن وجوه الإعجاز البيانية فى القرآن الكريم ولم يكن هذا – وحده – بل أضيفت له جملة من الفنون البديعية فى الجناس والالتفاف والسجع والفواصل مما لا كثير عناء باستخلاصه والوصول إليه بيسر، ولكن دائرة الجهد متحكمة فى استجلاء المجازات وطرق استعمالها والتشبيه ووجوه الشبه، والاستعارة وضروب أصنافها، والكناية ومجالات إيرادها.

إذن لا شوائب فى لغة القرآن وألفاظه، ولا صعوبة فى لمس جماله وتحسسه، فلا يحث مع ذلك للغرابة والتنافر والتعقيد، ولا كبير جهد بالوصول إلى أمثلة البديع، والإسناد والفصل والوصل والتقديم والتأخير، والتعريف والتنكير، والحذف والتقدير وما شاكل ذلك مذاهب قتلها النحاة بحثا وتمحيصا، فلم يبق إلا البيان المتمثل فى المجاز والتشبيه والاستعارة والكناية، وهذا هو البلاغة بعينها، وتلك هى الأصول الكبرى، والينابيع الأولى لفن القول، فيها يتقوم الجهد البلاغى الموروث، وعليها تدور رحى البلاغة العربية.

Scanned by TapScanner

٩- البيان فى طور التجديد البلاغى:

إن العربى اليوم بحاجة إلى إضاءة الدرس البلاغى على متطلبات التطور الحضارى، وهذا ما نجد ضرورة تطبيقه للبلاغة التى تعنى بتعليم الإنسان صناعة الكلام، وإذا كان الكلام صناعة فعلم البيان أساس هذه الصناعة، لأنه المعنى بصور الفن القولى التى تعتمد التشبيه والاستعارة والكناية وضروب المجاز أركانا يستند إليها فى هذا التعليم، ومهمة هذا التعليم استخراج الكلام الجيد.

وفى الضوء، ومن أجل حصر الأبعاد البيانية، فما كان فصيحا من الكلام فلا ما نع أن يكون بليغا أيضا، دون الخوض فى التفصيلات المملة، وقديما قال أبو هلال العسكرى المتوفى سنة ٣٩٥هـ.

"الفصاحة والبلاغة ترجعان إلى معنى واحد، وإن اختلف أصلاهما، لأن كل واحد منهما هو الإبانة عن المعنى والإظهار له".(١)

حقا إن الأصل اللغوى كان سببا لهذا التمايز بين المصطلحين إلا أن المناخ الذوقى يقتضى إلغاء هذا التقسيم والتمايز ففى طور تجديد البلاغة العربية عودة لتوحيد المصطلحين، لا اعتزازا برأى القدامى فحسب بل من أجل التوازن بعناصر البيان العربى بجمله ومفرداته وجهة صدوره، فهى بليغة وهى فصيحة

١- أبو هلال العسكرى الصناعتين ١٣.

Scanned by TapScanner

فى أن واحد دون التمييز بينهما بوصف البلاغة فنا يوصف بـــه الكلام والمتكلم دون الكلمة المفردة، وكون الفصاحة فنا يوصـــف به الكلام والمتكلم والكلمة.

وهذا ما يقودنا إلى معرفة البلاغة دون الخـــوض فـــى أبعـــاد التعريفات المضنية، فهناك أشتات متفرقة لتعريف البلاغة عنـــد الأمم سردها الجاحظ.(١)

وأما عند العرب فقد أجملها النويرى المتوفى ســـنة ٧٣٣هـــ بأنها:

"ما فهمته العرب ورضيته الخاصة".(٢)

ويميل أكثر البلاغيين إلى أنها: مطابقة الكلام لمقتضى الحـــال، أو مناسبة المقال للمقام.(٣)

ولقد كان علم البيان الذى يعرف به إيـــراد المعنـــى الواحـــد بتراكيب مختلفة، وبصور متعددة، هو القانون الذى تعرف به هذه المطابقة وتلك المناسبة، وأما ما أورده المتأخرون عن عصر عبد القاهر الجرجانى مثل السكاكى، والقزوينى بحصر أبحاث البلاغة فى المعانى والبيان والبديع وضروب تقسيماتها الجافة، وأنـــواع كل قسم، وأصناف كل قبيل، فمرده كما يقول الخولى إلـــى أنـــه "صورة لما ساد دراسة تلك البلاغة من نزعات فلسفية، وكلامية، ومنطقية، أقحمت فيها كثير من أبحاث لا علاقة لـــها بـــالغرض

١- الجاحظ البيان والتبيين ١/ ٨٧.
٢- النويرى نهاية الأرض ٧/ ١٠.
٣- داود سلوم النقد المنهجى عند الجاحظ ٨٣.

Scanned by TapScanner

الأدبى، وضيقت دائرتها الفنية، وأفاضت عليها جمـــودا وجفاف أعجزها عن أن تترك أثرا أدبيا فى ذوق دارسها".(١)

إذا لا محيص من إزالة الأوشاب العالقـــة بـــهذا الفـــن، مذ ص من تصفيه الأعشاب الضارة من هذه اللوحة، بحركة مـــن التجديد الأدبى تعنى بالفن القولى دون هذا الإرباك فـــى التقســـيم وهذا الأقحام فى الفلسفة والمنطق والكلام، إن هذا التجديد لا يزال به أكثر من إعادة الحق إلى نصابه وقطع دابر الخصام المفتعـــل فى مباحث البيان.

إن هذا التجديد بتصور أولى يجب أن يقوم على الأسس الآتية:

١- دراسة العلاقة القائمة بين الألفاظ والمعـــانى، واســـتخلاص الصورة الأدبية المنتزعة منهما بوصفهما امتدادا لهما علـــى أساس يتداخل فيه الغرض الفنى بـــالتعبير القولـــى، جملـــة واحدة غير قابلة للفصل، وليست بخاضعة لتفضيل الألفـــاظ على المعانى، أو تقديم المعانى على الألفاظ، مما لا طـــائل فيه، ولا جدوى منه.

٢- دراسة القدر الجامع المشـــترك بيـــن الألفـــاظ والمعـــانى، وتضافره فى تكوين النص الأدبى متكاملا، فلا ندع تحكمـــا للألفاظ على المعانى، ولا تمسكا بالمعـــانى علـــى حســـاب الألفاظ بل تخضع الجميع للذائقة الفنية القائمة على اســـتكناه الجمال والروعة فيما – يقدمه النص بطرفيه اللفظ والمعنى، ومن هنا يكون الحكم على سلامة النص بلاغيا.

١- أمين الخولى دائرة المعارف الإسلامية مادة بلاغة ٤/ ٧٠.

Scanned by TapScanner

٣- دراسة الأسس البلاغية السليمة التى تمتاز بها لغة القـــرآن الكريم كالمجاز والتشـــبيه والاســـتعارة والكنايـــة والرمـــز والتعريض بوصفها أركانا إذا فقدها النص لـــم يعـــد نصـــا بلاغيا يعتد به فهذه الأسس هى الحركة الدائبة فـــى اللفـــظ المنطبع أثره على المعنى، وهى الحياة فى المعنـــى الـــذى يعطى ذائقة اللفـــظ، وإلا عـــاد النـــص جـــامداً لا ينبـــض بالإحساس البلاغى، ولا يتسم بصفة الفن القولى.

وفى ضوء ما تقدم نلمس البلاغة فنا يتصـــل بالحيـــاة وعلمـــا تمشى مع الذوق ومسألة تحقق الطموح الإحساس بالجمال.

ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا

الدكتور

هلال عطا الله عثمان

Scanned by TapScanner